البطريرك صفير أيضاً وأيضاً!

حفل لبنان كلّه بوداع ضميره الحي المنتقل إلى باريه. كانت دموع الأسى تمتزج بدموع الاعتزاز. هزّني التفجّع واستفزّني الزهو، ورأيتني فترة من الزمن مفتوناً بأمّة منجاب ذات العبقريات المخصاب..

هل خبا أملٌ كان معقوداً على البطريرك المنتقل وضاقت النفس بالعزاء فإذا القلب يتصدّع ويتقطع؟..

ذرفت الأقلام من عبراتها، وأطلقت الحناجر شجيّ نبراتها، وكأنّي استعرض موكب المجد الأغلى، في طريقه الرهيب إلى الخلود الأعلى، فقلت خاشعاً: لا حول ولا... وسبحان مَن وهب وقسّم، وأعطي فعظّم، مجد في الحياة، ومجد في الممات، وعرش في السماوات، ولعمري هذه آية المعجزات، مجدٌ في مجدٍ في مجد. هذا هو غبطة البطريرك صفير ولله الشكر والحمد.. وكان للكتّاب يراعهم وقلبهم في نثر ينافس الشعر وشعر يزري بالدّر، في عاطفة مشبوبة كالجمر، ووفاء عنيد هو وفاء الحرّ للحر وإبداع كأنه السحر، أو هو السحر!

مضيت في رحاب الصرح المنيع استعرض موكب المجد يسير في ركاب الخلود، ولم يكن ذلك التابوت بتابوت القدر المشؤوم، وإنما كان أفقاً زاهياً مرصّعاً بإلهام أنزل على فنان فذ إلى مراثي الصحف.. هذه كلها نجوم رصّعت ذلك التابوت المتشامخ، فبدا وكأنه فلك تدور فيه الكواكب! تجلّت هذه الهالة النورانية الباذخة تحية الوداع الأخير، ويا لها تحية بليغة التعبير متأرّجة العبير..

حسبنا هذا العزاء وهذا الوفاء وهذا السخاء على أن يرافقه في القريب العاجل من تعهد وطني لإكمال المسيرة الرائدة!

حسب الفقيد الجليل، انه تجلّى ذلك النشيد الأصيل الجميل، في فم الدنيا والدين وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

د. جهاد نعمان
أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه